العنوان:	كتاب الإبانة عن أصول الديانة : تحقيق في نسبته إلى أبي الحسن الأشعري
المصدر:	مجلة الإبانة
الناشر:	الرابطة المحمدية للعلماء - مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية
المؤلف الرئيسي:	زهري، خالد حسن محمد
المجلد/العدد:	ع 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2013
الشهر:	يونيو / رجب
الصفحات:	116 - 131
DOI:	10.12816/0002389
رقم MD:	468954
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	نقد الكتب ، أبو الحسن الأشعري ، علي بن إسماعيل بن إسحاق ، ت. 324 هـ، الفكر الإسلامي ، الفرق الإسلامية ، المذاهب الفقهية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/468954



"كتاب الإبانة عن أصول الديانة":
تحقيق في نسبته إلى أبي الحسن الأشعري

د. خالد زَهْري[1]

ينبغي الحذر من الدوافع الإيديولوجية، التي قد تكون وراء إثبات نسبةِ كتابٍ لهذا المؤلِّف أو ذاك. وهذا كثيرا ما يقع في الكتب العقدية، لكونه وسيلة ناجعة في نشر رؤية عقدية معيَّنة.

ونمثل لذلك بكتاب "**الإبانة عن أصول الديانة**" المنسوب لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت.324هـ/936م)، حيث إن الاتجاه السائد لدى الباحثين، أنه من أواخر مؤلفاته، ويعتبرونه معبِّرا عن توجُّه عقدي جديد اعتنقه المؤلف، وهو "**مذهب السلف**"، بعد عدوله عن توجُّهه التأويلي الذي طبع البداية الأولى لحياته السُّنية بعدما عدل عن مذهب الاعتزال[2].

بيد أن كثيرا من القرائن، تقف شاهدة على عدم صحة نسبته إليه. وقبل تسليط الضوء على بعضها، نشير إلى ثلاثة أمور:

1- باحث متخصص في التصوف والعقيدة/ الخزانة الحسنية بالرباط-المغرب.

2- انظر؛ مثلا؛ "**تعريف الخلف بمنهج السلف: دراسة منهجية لأصول مذهب السلف في تقرير العقيدة والدفاع عنها وطرق التأليف فيها**" لإبراهيم البريكان (دار ابن القيم، الرياض – دار ابن عفان، القاهرة، ط. 1، 1426 / 2005، ص. 295، 298). وما قيل في "**الإبانة**" من اعتباره توجُّها سلفيا تفويضيا قيل في كتابين آخرين منسوبين لأبي الحسن الأشعري أيضا، وهما: "**مقالات الإسلاميين**"، و"**رسالة إلى أهل الثغر**" (**عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية: دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال "البرهانية" وشروحها**، لجمال علال البختي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية – دار أبي رقراق، الرباط، ط. 1، 1426 / 2005، ص. 23).

الأمر الأول: أن صاحب الكتاب يعلن صراحة في أول عبارات الخطبة، أنه على "**مذهب أهل التسليم والتفويض**"[1]، وبعبارته: «...ونستعينه استعانة مَنْ فَوَّضَ أمرَهُ إليه»[2]، ويعلن موقفه من "**الصفات السمعية**"، كالوجه، واليدين، والعين، والأصبع، والنزول، إلخ، وهو موقف **التفويض**، لا **التأويل**[3].

ولا ضَيْرَ في ذلك، إذ إن هذا المذهب من أبرز وأهَمِّ المدارسِ السُّنية[4]، وإنما الإشكال في التعصب له، بإقصاء كل توجه عقدي يخالفه، كما سنرى بعد حين .

الأمر الثاني: تذكيره، بين الفينة والأخرى، أنه على "**مذهب السلف**"، باستعمال عبارات من قبيل: «**السلف** المتقدمين»[5]، و«ندين بحب **السلف**»[6]، مما يستلزم أنه ألف الكتاب لغرض واضح، وهو الدفاع عن هذا المذهب.

وهذا أيضا لا ضير فيه، وإنما الضير في جعل عبارة "**السلف**" عنوانا لمدرسة واحدة من المدارس الكلامية السُّنية دون غيرها.

الأمر الثالث: تصريحه بأنه ينتمي للمدرسة الحنبلية، وبعبارته: «قَوْلُنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث. ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن محمد[7]، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته، قائلون، ولمن خالف قوله

1- يقال له أيضا "**مذهب السلف**".

2- **الإبانة عن أصول الديانة** لأبي الحسن الأشعري، دار ابن حزم، بيروت، ط. 1، 2003 / 1423، ص. 8.

3- **المصدر نفسه**، ص. 13، 15، 17، 18، 55 – 61.

4- ينقسم المذهب السني الأشعري إلى مدرستين بارزتين: "**المدرسة التأويلية**" و"**المدرسة التفويضية**" (**طبقات الشافعية الكبرى** لتاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، ط. 1، 1967/1386، ج. 5، ص. 191 – 192).

5- **الإبانة**، ص. 11.

6- **المصدر نفسه**، ص. 17.

7- أي: الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه.

مجانبون، لأنه الإمام الفاضل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم، وجليل معظم، وكبير مفخم، وعلى جميع أئمة المسلمين»[1].

وهذا أيضا لا ضير فيه، لكن هل ينتمي أبو الحسن الأشعري حَقًّا إلى المذهب الحنبلي؟

هذا ما سنبُتُّ فيه بعد ذكر أهم القرائن، التي نراها كافية في الجزم بعدم صحة نسبة هذا الكتاب إلى أبي الحسن الأشعري، وهي:

1 – من ترجَمَ أبا الحسن الأشعري من المتقدمين، لم يذكر هذا الكتاب في تصانيفه، بل أول من ذكره هو ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر الدمشقي (ت. 571هـ/1176م) في كتابه "**تبيين كذب المفتري**"[2]، ونقل منه كلاما طويلا[3].

نَعَمْ، ذكره قبله القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت.544هـ/1149م) في "**ترتيب المدارك**" بعنوان "**الإبانة في أصول الديانة**"[4]، لكن لا يمكن الجزم بأن المقصودَ به الكتابُ مَحَلُّ الدراسةِ، ما دام القاضي عياض لم ينقل منه شيئا، ولا أشار إلى مضمونه[5]، بخلاف صنيع ابن عساكر.

2 – تضمَّن هذا الكتابُ عقائدَ يستحيل أن تصدر عن مبتدئ في دراسة "**المذهب الأشعري**"، بل يستحيل صدورها من عوام أهل السنة، بَلْهَ أن تصدر عن رأس من رؤوس مذهب أهل السنة.

1- **الإبانة**، ص. 14.

2- **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري** لابن عساكر الدمشقي، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، ط. 1، 1416 / 1995، ص. 136.

3- **المصدر نفسه**، ص. 153 – 164.

4- نلاحظ في هذا العنوان تعويض الحرف "**في**" للحرف "**عن**".

5- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** للقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط – مطبعة فضالة، المحمدية (المغرب)، ط. 2، 1982، ج. 5، ص. 27.

ومن هذه العقائد، الواردة في هذا الكتاب، أن القرآن الكريم قديم بكامله، أي: بلفظه ومعناه، وهذه عبارته: «القرآن يقرأ في الحقيقة ويتلى، ولا يجوز أن يقال يلفظ به، لأن القائل لا يجوز له أن يقول: إن كلام [الله] ملفوظ به، لأن العرب إذا قال قائلهم: "لفظت باللقمة من فمي"، معناه: رميت بها، وكلام الله عز وجل لا يقال: "يُلفظ به"، وإنما يقال: "يُقرأ، ويتلى، ويكتب، ويحفظ". وإنما قال قوم: "لفظنا بالقرآن"، ليثبتوا أنه مخلوق، ويزينوا بدعتهم وقولَهم بخلقه، ويدلِّسوا كفرهم على من لم يقف على معناهم. فلما وقفنا على معناهم، أنكرنا قولهم. **ولا يجوز أن يقال: "إن شيئا من القرآن مخلوق"، لأن القرآن بكامله غير مخلوق**»[1].

ولا يخفى خطورة هذا الاعتقاد، وما يفضي إليه من تجسيم، وإثباتِ الحدوثِ لكلام الله عز وجل. والحال، أنه تعالى متره عن الحروف والأصوات، لأنها حادثة، وقيام الحوادث بالقديم محال عقلا. أما شرعا، فالإجماع منعقد على قِدم كلامه تعالى بمعناه دون لفظه لدى كل المدارس السُّنية.

أما القول بأنه مخلوق بلفظه ومعناه مَعًا، فلم يُعْرَف إلا من مذهب واحد، وهو مذهب **الحشوية** من **الحنابلة**، وهم قوم «ينتسبون إلى مذهب أحمد بن حنبل، غلوْا في ترك التأويل، حتى وقعوا في التشبيه، وأكثرهم ليس من العلم بسبيل، ولكنهم لانتسابهم إلى السنة والحديث، قبلت العامة أقوالهم»[2]، مع ضرورة التنبيه على براءة جمهور **الحنابلة** من هذا الاعتقاد الفاسد، يقول ابن عساكر: «وعلى الجملة، فلم يزل في الحنابلة طائفة تغلو في السنة، وتدخل فيما لا يعنيها، حبا للخفوف في الفتنة، ولا عارَ على أحمد رحمه الله مِن صَنيعهم، وليس يتفق على ذلك رأي جميعهم، ولهذا قال أبو حفص عمر بن أحمد ابن عثمان بن شاهين، وهو من أقران الدارقطني، ومن أصحاب الحديث المتسننين: [...] رجلان صالحان بُلِيا بأصحاب سوء: جعفر بن محمد، وأحمد بن حنبل»[3].

1- **الإبانة**، ص. 48.

2- **ترتيب المدارك**، ج. 5، ص. 26.

3- **تبيين كذب المفتري**، ص. 164 – 165. وانظر أيضا: =

3 – ورد في الكتاب التصريح بأن الله تعالى ساكن في السماء، ومما اعتُمِد دليلا على ذلك، أن «مِن دعاء أهل الإسلام جميعا، إذا هم رغبوا إلى الله عز وجل في الأمر النازل بهم، يقولون جميعا: "**يا ساكن السماء!**"، ومن خَلَفَهُم جميعا: "لا والذي **احتجب بسبع سماوات**»[1].

والنتيجة التي يصل إليها صاحب هذا الكتاب، بعد سرد الأدلة النقلية ومناقشتها مناقشة لا تخلو من تكلُّف وتعسُّف، هي المَصُوغة بقوله: «وهذا يدل على أن **الله عز وجل على عرشه فوق السماء**، فوقية لا تزيد قربا من العرش»[2].

وهذا هو التجسيم عينه، الذي لم يأل الأشاعرة جهدا في دحضه، والرد على القائلين به، وتقديم الأدلة العقلية والنقلية الدالة على فساده.

4 – عُرِف عن أبي الحسن الأشعري، أنه كان مناظرا لكل المذاهب السائدة في عصره، بل إنه العالم الذي كان مناظرا عندما كان معتزليا، وازدادت مناظراته عندما عدل عنهم، وعاش مناظرا، إلى أن مات مناظرا. بيد أن "**الإبانة**" كُتِب بروح إقصائية، تستنكف عن المناظرة، وتصف المخالف؛ أيًّا كان؛ بالزندقة[3]، وتتسلط عليه باللعن[4]، ومن عباراته الإقصائية:

– «ونرى **مفارقة** كل داعية إلى بدعة، **ومجانبة** أهل الأهواء»[5].

= – "**أبو الحسن الأشعري**" لحموده غرابه (الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، بيروت، 1393/ 1973، ص. 57 – 59).

-Watt (W. Montgomery), **Al-Ash'arî**, **Abû l-Hasan**, in « **Encyclopédie de l'Islam** », éd. E. J. Brill, Paris, 1958, T.I, p.716.

1- **الإبانة عن أصول الديانة**، ص. 53.

2- **المصدر نفسه**، ص. 54.

3- **المصدر نفسه**، ص. 62.

4- **المصدر نفسه**، ص. 12.

5- **المصدر نفسه**، ص. 20.

- «وهذا ناقض لقول مخالفنا، و**كاسر لمذهبهم**»[1].

5 – عُرِف عن أبي الحسن الأشعري نقده الشديد لحشوية الحنابلة، ويظهر ذلك جليا في كتابه "**استحسان الخوض في علم الكلام**"[2]، بل إنه ألفه للرد عليهم في قولهم بتحريم الخوض في "**علم الكلام**" والنظر في كتب المتكلمين.

6 – عُرف عن أبي الحسن الأشعري انفتاحه على المذاهب والآراء المخالفة، ولغتُهُ في مناقشتها تتسم بالهدوء، فلم يُعْرَف عنه في مناظراته أنه كان مُكابِرا، أو في معزل عن الوظائف المطلوبة في المناظرة، أو أنه لم يتصف بآدابها، يقول ابن عساكر، بعد ذكر حكاية عن مناظراته: "هذه الحكاية تدل على قوة أبي الحسن رحمه الله في المناظرة، واطراحه فيها ما يستعمله بعض المجادِلين من المكابَرة، وتنبئ عن وفور عقله، وإنصافه لإقراره بظهور خصمه واعترافه"[3]، على النقيض من "**الإبانة**" التي صيغت أفكارها بعبارات عنيفة ومتشنجة، ولا نتردد في نعتها بـــ "لغة السيف وقطع الرؤوس"، كما تدل على ذلك؛ مثلا؛ العبارتان التاليتان:

- «ولولا أنهم **خافوا السيف**، لأفصحوا بأن الله غير سميع، ولا بصير، ولا عالم، ولكن **خوف السيف منعهم من إظهار زندقتهم**»[4].

- «فمنعهم **خوف السيف** من إظهار نفي ذلك»[5].

1- المصدر نفسه، ص. 58.

2- أنكر المستشرق كلاين نسبة هذه الرسالة إلى أبي الحسن الأشعري في مقدمة ترجمته الإنجليزية لكتاب "**الإبانة**"، وهذا ليس صحيحا، لأن أفكارها منسجمة مع الأفكار الواردة في سائر كتبه الصحيحة النسبة إلية ككتاب "**اللمع**":

- Ash'arî (Abou l'Hasan), **Al-Ibânah 'an Usûl ad-Diyânah**, translation with introduction and notes by Walter C. Klein, ed. Kraus Reprint Corporation, New York, 1967, p. 29.

ومِمن جَزَمَ بنسبة هذه الرسالة إلى أبي الحسن الأشعري المستشرق الفرنسي دانيال جماري:

- Gimaret (Daniel), **La doctrine d'al-Ash'arî**, ed. Cerf, Paris, 2007, p. 15 – 16.

3- **تبيين كذب المفتري**، ص. 98.

4- **الإبانة**، ص. 55.

5- **المصدر نفسه**، ص. 62.

7 – عُرف عن أبي الحسن الأشعري، أنه لا يُكَفِّر أحدا من أهل القبلة، لا المعتزلة، ولا الجهمية، ولا الشيعة، ولا الخوارج، ولا غيرهم، وقد أشهد كل مَن حضر وفاته بذلك. بيد أن عبارات التكفير، لا تخلو منها صفحة من صفحات "**الإبانة**"، ونقتبس منها العبارات التالية:

- «إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإن من قال بخلق القرآن، **فهو كافر**»[1].
- «وهذا مما **لا يدعيه مسلم**»[2].
- «وهذا **خروج عن دين المسلمين**»[3].
- «**وخروج عما عليه جمهور أهل الإسلام**»[4].
- «وهذا **ترك لدين المسلمين**، ورد لقول الله عز وجل»[5].
- «وهذا هو **الخروج عن الإسلام**»[6].
- «وأي **كفر أكفر** من هذا؟! أو أي **كفر أشر** من هذا؟!»[7].
- «ولا يدرون ما فيه، **وهو الكفر**»[8].
- «أقول: **هو كافر**»[9].

1- **المصدر نفسه**، ص. 16.
2- **المصدر نفسه**، ص. 23.
3- **المصدر نفسه**، ص. 23.
4- **المصدر نفسه**، ص. 34.
5- **المصدر نفسه**، ص. 39.
6- **المصدر نفسه**، ص. 39.
7- **المصدر نفسه**، ص. 42.
8- **المصدر نفسه**، ص. 43.
9- **المصدر نفسه**، ص. 43.

- «فمن قال لنا: إنه مخلوق، **فهو عندنا كافر**»[1].

- «من زعم أن القرآن مخلوق، **فقد كفر**»[2].

- «إن القرآن غير مخلوق، وإن **من قال بخلقه كافر** من العلماء والآثار ونقلة الأخبار، لا يحصون كثرة»[3].

- «**خارج عن جملة المسلمين**»[4]، إلخ.

النتيجة التي نصل إليها، هي أن "**الإبانة**" من تأليف أحد **حَشوية الحنابلة**، ولا يمت بصلة إلى المصنفات صحيحة النسبة إلى أبي الحسن الأشعري. ومن أجل التمويه، والإمعان في التدليس، نقل مؤلِّفُه؛ الذي لا نعرف عنه إلا أنه **حشوي**؛ فقرات من كتاب "**اللمع**" صحيح النسبة إليه، حتى لا يتردد القارئ في أنه له، فيطمئن للعقائد الفاسدة الواردة فيه ما دامت من مقالات عَلَم من أعلام أهل السنة الذين لا يُقَعْقَع لهم بالشِّنان.

ونمثل لذلك بـــ "**باب الكلام في الإمامة**" من "**اللمع**"[5]، فمِنْ قوله: «وقد نطق القرآن القرآن بإمامة الصديق، ودل على إمامة الفاروق» إلى قوله: «فسد قول من قال: إن النبي ﷺ نص على إمامة غيره، لأنه يجوز إمامة مَن نصَّ الرسول على إمامة غيره»[6] مضمَّن بلفظه في "**باب: الكلام في إمامة أبي بكر الصديق** رضي الله عنه" من "**الإبانة**"[7]، إذ هو مطابق؛ مع اختلاف يسير في اللفظ؛ لِلفقرات الممتدة من قوله: «دليل آخر من القرآن على إمامة

1- **المصدر نفسه**، ص. 43.

2- **المصدر نفسه**، ص. 45.

3- **المصدر نفسه**، ص. 45.

4- **المصدر نفسه**، ص. 62.

5- **اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع** لأبي الحسن الأشعري، ضبط وتصحيح محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1421 / 2000، ص. 83 – 85.

6- **المصدر نفسه**، ص. 84 – 85.

7- **الإبانة**، ص. 105 – 109.

أبي بكر الصديق ﵁ في **سورة براءة**» إلى قوله: «وإذا وجبت إمامة أبي بكر بعد رسول الله ﷺ، وجب أنه أفضل المسلمين ﵁»[1].

ومنها عبارات مبثوثة داخل الكتابين، من قبيل هذا الكلام في "**اللمع**": «لأن الحي، إذا لم يكن موصوفا بالكلام، كان موصوفا بضده، كما أنه إذا لم يكن موصوفا بالعلم، كان موصوفا بضده»[2]، ونظيره في "**الإبانة**": «لأن خلاف الكلام الذي لا يكون معه كلام سكوت أو آفة، كما أن خلاف العلم الذي لا يكون معه علم جهل، أو شك، أو آفة، ويستحيل أن يوصف ربنا عز وجل بخلاف العلم»[3].

ومن قبيل ذلك أيضا، قول الأشعري في "**اللمع**": «ولا يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4] معتبرة [...] لأن الآخرة ليست بدار اعتبار»[5]، ونظيره في "**الإبانة**": «فلا يجوز أن يكون الله عز وجل عنى نظر التفكير والاعتبار، لأن الآخرة ليست بدار اعتبار»[6].

وأمثال هذه العبارات المتشابهة في الكتابيْن المذكوريْن، هي التي جعلت المستشرق الفرنسي دانيال جِماري "Daniel Gimaret" يصحِّح نسبة "**الإبانة**" إلى أبي الحسن الأشعري في ردِّهِ على المستشرق ماكارتي "Mc Carthy" الذي أنكر هذه النسبة[7].

لكن السؤال المترتب على نفي نسبة "**الإبانة**" إلى أبي الحسن الأشعري هو: مَن هو المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب؟

1- **المصدر نفسه**، ص. 106.

2- **اللمع**، ص. 25.

3- **الإبانة**، ص. 33.

4- **سورة القيامة**، الآيتان 22 - 23.

5- **اللمع**، ص. 39.

6- **الإبانة**، ص. 21.

7- انظر تفصيل ذلك في: - Gimaret, **op. cit.**, pp. 10 – 15.

ينسب القاضي عياض كتابا بعنوان "**الإبانة عن أصول الديانة**" لأحد علماء بلاد الأندلس، وهو أبو مروان عبد الملك بن العاصي بن محمد بن بكر السعدي، أصله من قرطبة، ونشأته فيها، وأصله من طليطلة، وقيل من قلعة ربـــاح، توفي عـــام 330هـــ (= 941م)[1].

لكن مجرد نسبة عنوان الكتاب إليه لا يكفي في حَلِّ الإشكال، لاحتمال أن يكون عنوانا لكتاب آخر لا علاقة له بالكتاب مَحَلِّ الدراسة، إذ إن كثيرا من الكتب لمؤلفين مختلفين تشابهت عناوانها مع اختلاف في موضوعاتها ومضامينها.

لكن، هناك معالم في الشخصية العلمية والمعرفية لأبي مروان السعدي، ذكرها القاضي عياض، وقد يكون لها شبيه لدى مؤلِّف "**الإبانة**"، وهي:

- كان "نظارا"؛
- "متصرفا في علم الرأي".

وهُما مَعْلَمَان واضحان في الشخصية المعرفية لمؤلف "**الإبانة**"، إذ يظهر منه أن مؤلفه كان مناظرا، بل معتادا على المناظرة.

أما وصفه بالتصرف في "**علم الرأي**"، فلا يستلزم أنه كان من "**أهل الرأي**"، فقد يكون معناه: كان يتصدى للمناظرة مع "**أهل الرأي**"، وهذا حاصل في كتاب "**الإبانة**"، حيث إن صاحبه ناظر فيه المعتزلة وغيرهم من المذاهب الكلامية.

وهناك مَعْلَم آخر، وهو أنه عندما كان في رحلته العلمية بالمشرق، وُصِف -كما يفيدنا بذلك القاضي عياض -بأنه "مال هناك إلى النظر والحجة".

1- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** للقاضي عياض، تحقيق سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط – مطبعة فضالــة، المحمديــة (المغرب)، ط. 1، 1401 / 1981، ج. 6، ص. 144 – 145.

وهذا يعني أن توجُّهه الكلامي في المشرق كان مخالفا لتوجُّهه الكلامي عندما رجع إلى الأندلس.

فهل يعني هذا، أنه مال في المشرق إلى صف حشوية الحنابلة، لاسيَّما إذا علمنا أن تلك الفترة عرفت طغيانا لمذهب الاعتزال خاصة مع أبي علي الجُبّائي وأبي هاشم الجُبّائي؟

لكن هذا لا يكفي أيضا في تقرير نسبة الكتاب إلى أبي مروان السعدي.

وحيث إن المعطيات المذكورة لا تكفي في تأكيد نسبة "**الإبانة**" إلى هذا الأخير، وأيضا لا تنفي إمكانية أن يكون هو مؤلفه الحقيقي، فأولى بنا وأجدر أن نترك الباب مفتوحا للمزيد من البحث والدراسة.

* * *

وعليه، فإن كثيرا من البحوث بنت أفكارها على توهُّم صحة نسبة "**الإبانة**" إلى أبي الحسن الأشعري، فكانت عبارة عن دعاوى لا أساس لها من الصحة، لا في طريقة عرضها، ولا في النتائج التي استخلصتها، بل إن بحثا مغربيا، نشر في مجلة وطنية، قارنت فيه صاحبته بين فكر أبي الحسن الأشعري من خلال "**الإبانة**" وفكر الحنابلة، دون التأكد من نسبة الكتاب إليه، مما يفضي إلى القول بأن المقارنة –عند التحقيق- كانت بين حنبلي وحنبلي، وليس بين أشعري وحنبلي[1].

ولا يمكن الاستهانة بالخطإ في نسبة "**الإبانة**" إلى أبي الحسن الأشعري، حيث إن ذلك أخذ أبعادا إيديولوجية خطيرة في فترتنا المعاصرة، لِما يحمله هذا الكتاب من عقائد وأفكار غريبة عن عقيدتنا الأشعرية التي تعتبر من أهم الأركان التي بنى عليها المغاربة حضارتهم، وشَكَّلوا بها هُويتهم، على مدى عدة قرون. ومن ذلك، مصادمته لمَعْلم من أهم معالم

1- **الفكر الأشعري دعوة سنية وضرورة حضارية**، لنزيهة معاريج، مجلة "**الفرقان**"، الدار البيضاء، العدد 63، 2009/1430، ص. 7 – 9.

المذهب الأشعري، وهو "**الوسطية**" التي من مصاديقها الموقف الوَسَط والعَدْل في تنزيه الذات الإلهية وصفاتها، فلا هُمْ تطرفوا في **تأويل الصفات الخبرية** كما هو صنيع **المعتزلة**، ولا هُمْ رفضوا **التأويل** جملة وتفصيلا كما هو صنيع **حشوية الحنابلة**.

هذا، وإن كثيرا من دُور النشر، التي طبعت هذا الكتاب بعشرات الطبعات، واجتهدت في نشره على أوسع نطاق، وفي أبهى حُلّة، وبأثمنة بَخْسَة، كانت إلى عهد قريب تُصْدِر منشورات تطعن في الأشاعرة، وتفتري على أبي الحسن الأشعري، ولا تتورع في النيل منه، وتجتهد في نشر فكر إقصائي متطرف، مما يجعلنا نتساءل: لماذا كان هذا الكتاب استثناء من القاعدة التي تميِّز هذه الدُّور؟

بل خُصِّصَت طبعاتٌ للتوزيع مجانا، من قبيل طبعةٍ وُزِّعت في المغرب، دون أي إشارة إلى الدار أو المطبعة التي تَوَلَّتْ الطباعة والنشر والتوزيع، لكن كُتِب أسفل غلافِ **وورقةِ العنوان** العبارة التالية: «طبعت على نفقة فاعل خير من السعودية، فلا تنساه ووالديه من دعائك»، كما كُتب تحتها سنة الطبع (1417 هـــ) وعبارة : «يُوزَّع مجانا».

وإذا نظرنا في أعلى الغلاف **وورقة العنوان** جهة اليمين، لفتت أنظارنا العبارة التالية: "**المكتب الثقافي السعودي بالمغرب**"[1]، مما يعني أن البلد الذي كان هدفا لتوزيع النُّسَخ المطبوعة هو البلد الذي عُرف علماؤه، في تاريخه الطويل، بالاجتهاد والجهاد في سبيل ترسيخ المذهب الأشعري بين أفراد الأمة، والذين عُرف عنهم الحرص الشديد في حفظ هذا المذهب:

1- نُنَزِّه المملكة العربية السعودية عن أيِّ سلوك يسير في الاتجاه المعاكس للمذهب الأشعري السني، فهي دولة سُنِّية معتدلة، وأفضالها في خدمة أهل السنة بمختلف مدارسهم ومشاربهم لا تخفى على أحد، والمذهبُ السَّلفِيُّ السُّني الذي تتبعه المملكة أخٌ شقيق للمذهبيْن السُّنييْن الآخَرَيْن: الأشعري والماتريدي.



ومهما يكن من أمر، فإن ما يُثار حول كتاب "**الإبانة**" من شكوك، يجعل اعتماده مقرَّرا في مادة "**العقيدة**" في جامعاتنا يحتاج إلى إعادة النظر، كما يوجب تنبيه الدعاة والوُعاظ الذين يهتفون بعقائد هذا الكتاب مِن على المنابر وكراسي الوعظ والإرشاد إلى العدول عنه، لأنه يفضي إلى أربع مفاسد على الأقل:

1 – أنه لا يعبِّر عن المذهب الحقيقي لأبي الحسن الأشعري، ويقدم أفكارا خاطئة عن الرجل.

2 – أنه يختلف في كثير من العقائد المبثوثة فيه مع أصول عقيدتنا الأشعرية التي تعتبَر المكوِّن الأساس في حضارة الغرب الإسلامي منذ قرون.

3 – أنه يؤدي إلى غَرْس فكر إقصائي يتناقض مع الفكر الوَسَط والمعتدل لدى أتباع "**المذهب الأشعري**".

4 – أنه قد يكون قناة لتمرير فكر، لا يمكن أن يرحِّب به أيُّ مغربي أصيل لا يبتغي دون أشعريته بدلا.

* * *

من هنا تظهر أهمية إعادة النظر في نسبة مجموعة كبيرة من الكتب، التي كانت سببا في إصدار أحكام خطيرة بسبب شيوع الخطإ في النسبة.

ويكفي دليلا على ذلك، كتاب "**المضنون به على غير أهله**"[1]، الذي استند إليه تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت.728هـ/1328م) في كتابه "**نقض المنطق**"؛ بعد الجزم بنسبته إلى أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت.505هـ/1111م) ؛ للطعن في عقيدته، والنيل منه بالتضليل والتفسيق، ونعت قوله بأنه "قول الصابئة المتفلسفة بعينه، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم"[2].

والحال، أن الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي ابن عربي الحاتمي الطائي (ت.638هـ/1240م)، أنكـر نسبة هذا الكتـاب إلى أبي حامد الغزالي، ونسبه إلى أبي الحسن علي بن محمد المُسَفِّر السَّبْتِي (ت.621هـ/1224م)، يقول في معرض الكلام على الالتقاء به في مدينة سبتة: «وكان هذا الشيخُ المسفرُ جليلَ القدر، حكيما، عارفا، غامضا في الناس، محمود الذكر، رأيته بسبتة، له تصانيف، منها "**منهاج العابدين**" الذي يعزى لأبي حامد الغزالي، وليس له، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ، وكذلك كتاب "**النفخ والتسوية**" الذي يعزى إلى أبي حامد أيضا، وتُسَمّيه الناس "**المضنون الصغير**"»[3].

1- أقصد به "**المضنون الصغير**"، ويعرف أيضا بـ "**النفخ والتسوية**".

2- **نقض المنطق** لابن تيمية، تحقيق محمد بن عبد الرزاق حمزة، وآخرَيْن، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، د.ت.، ص. 53 – 54. 2

3- **كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار** للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط.1، 1324/1906، ج. 1، ص. 125.

وكذلك صَنَعَ أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي (ت.1090هـ/1679م)، مستندا إلى مقالة الشيخ الأكبر فيما نقلناه عنه[1].

فيكون الشيخ الأكبر وأبو سالم العياشي، قد بيَّنا كذب المفترين فيما نسبوه إلى حجة الإسلام، وإن كان الكثير من العقول المتحجِّرة لم تعدل بعدُ عن موقف ابن تيمية، إما حمية وتعصبا لتيار فكري إقصائي معيَّن، وإما جهلا بتحقيق العالِميْن المذكورين.

ثبت بالمراجع والمصادر

- الأشعري أبو الحسن، الإبانة عن أصول الديانة، دار ابن حزم: بيروت، ط:1، 1423/ 2003.
- الأشعري أبو الحسن، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، ضبط وتصحيح: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية: بيروت، ط: 1، 1421 / 2000.
- البختي جمال علال، عثمان السلالجي ومذهبيته الأشعرية، (دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال "البرهانية" وشروحها)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار أبي رقراق: الرباط، ط: 1، 2005/1426.
- البريكان إبراهيم، تعريف الخلف بمنهج السلف، (دراسة منهجية لأصول مذهب السلف في تقرير العقيدة والدفاع عنها وطرق التأليف فيها)، دار ابن القيم: الرياض، دار ابن عفان، القاهرة: ط: 1، 1426 / 2005.
- ابن تيمية: نقض المنطق، ابن تيمية، تحقيق: محمد بن عبد الرزاق حمزة، وآخرَيْن، مكتبة السنة المحمدية: القاهرة، د.ت.
- ابن عربي محيي الدين: كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، مطبعة السعادة: القاهرة، ط:1، 1906/1324.
- ابن عساكر الدمشقي: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الجيل: بيروت، ط: 1، 1416 / 1995.

1- **الرحلة العياشية** (= "**ماء الموائد**")، لأبي سالم العياشي، تحقيق سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، ط. 1، 2006، ج. 1، ص. 520.

- السبكي تاج الدين ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه: القاهرة، ط: 1، 1386/1967.
- العياشي أبو سالم: الرحلة العياشية (="ماء الموائد")، تحقيق: سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، ط: 1، 2006.
- عياض القاضي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد ابن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية: الرباط، مطبعة فضالة: المحمدية (المغرب)، ط: 2، 1982.
- غرابه حموده: أبو الحسن الأشعري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية: القاهرة، بيروت، 1393/1973.

المراجع بالأجنبية

- Ash'arî (Abou l'Hasan), Al-Ibânah 'an Usûl ad-Diyânah, translation with introduction and notes by Walter C. Klein, ed. Kraus Reprint Corporation, New York, 1967.
- Gimaret (Daniel), La doctrine d'al-Ash'arî, ed. Cerf, Paris, 2007.
- Watt (W. Montgomery), Al-Ash'arî, Abû l-Hasan, in « Encyclopédie de l'Islam », éd. E. J. Brill, Paris, 1958, T.I.

المقالات

- الفكر الأشعري دعوة سنية وضرورة حضارية، لتريهة معاريج، مجلة "الفرقان"، الدار البيضاء، العدد 63، 1430/2009، ص.7 – 9.